

الأمثل في تفسير كتاب المنزل

[433] ثمَّ يؤكد ذلك أنَّهم لا يمكن أن يؤمنوا إلاَّ في حالة واحدة وهي أن يجبرهم
إِلاَّ بإرادته على الإيمان: (إِلاَّ أن يشاء إِلاَّ أنَّ إِيْمَاناً كهذا لا ينفع في تربيتهم
ولا يؤثر في تكاملهم وفي النهاية يقول: (ولكنَّ أكثرهم يجهلون). هناك كلام مختلف بين
المفسِّرين عمَّن يعود إِيْلَهُم الضمير "هم" في هذه العبارة، فقد يعود إِيْلَى الْمُؤْمِنِينَ الذين
أُصْرُوا على رسول الله(صلى إِلاَّ عليه وآله وسلم) أن يحقق للمشركين طلباتهم ويأتيهم بكل
معجزة يريدونها. وذلك لأنَّ معظم هؤلاء المؤمنين كانوا يجهلون زيف الكفار في دعواهم،
ولكنَّ إِلاَّ كان عالماً بأنَّهم كاذبون، ولذلك لم يجبه إِيْلَى طلباتهم، إِلاَّ أنَّ دعوة رسول
الله(صلى إِلاَّ عليه وآله وسلم) لا يمكن أن تخلو - طبعاً - من معجزة، فقد حقق إِلاَّ في مواضع
خاصَّة معجزات مختلفة على يده. والإِحْتِمَال الآخر هو أنَّ الضمير "هم" يعود إِيْلَى الكفار
أصحاب الطلبات أنفسهم، أي أنَّ أكثرهم يجهل قدرة إِلاَّ على تحقيق كل أمر خارق للعادة،
ولعلمهم يعتبرون قدرته محدودة لذلك كانوا يصفون معجز الرُّسُول بالسحر، يقول سبحانه:
(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلُّوا فيه يعرجون لقالوا إِنَّمَا سَكْرَاتُ أَبْصَارِنَا بِل
نحن قوم مسحورون)(1) فهم قوم معاندون وجاهلون وينبغي أن لا يهتم أحد بكلامهم. * * *